أثر رحلات الحج في نشوء الوظائف والمؤسَّسات الإدارية وتطورها في بلاد السودان الغربي

أ.د. صباح إبراهيم الشيخلي(*)

الكلمات المفتاحية:

السودان الغربي، رحلات الحج، الوظائف والمؤسَّسات الإدارية، الممالك السودانية، مملكة مالي، ممكلة السنغاي.

توطئة:

كان الحَج أحد وسائل انتشار الإسلام ونتيجة من نتائجهِ في بلاد السودان الغربي، حيث تتداخل العوامل مع الوسائل، بل كثيراً ما تظهر العوامل وتتَّحد بتوفر الوسائل للوصول إلى الأهداف والنتائج المطلوبة[1]. ومن هنا ننطلق لدراسة رحلات الحَج وأثرها على بلاد السودان الغربي[2].

إنَّ الهدف من هذهِ الدراسة هو تسليط الضوء على رحلات الحَج التي قام بها زعماء وحُكَّام السودان الغربي خلال الحقبة الزمنية المُمتدة من القرن (٥هـ/ ١١م) إلى القرن (٩هـ/ ١٥م). وسنهتم بأثر هذهِ الرحلات في نشوء النُّظُم الإدارية وتطورها في تلك البلاد، مركِّزين على نقطتين:

١- الاهتمام بمرحلتي النشوء والتطور في النُّظُم الإدارية في ممالك السودان الغربي.

٢- الاستشهاد بنماذج من الوظائف والمؤسَّسات الإدارية في تلك الممالك، والتي جاءت كثمار لرحلات الحَج في تطورها واستحداثها.

وستكون الدراسة، بطبيعةِ الحال، في ضوءِ المعلومات التي دوَّنتها مصادرنا التراثية، بما فيها من مؤلَّفاتٍ جغرافية وتاريخية، مُستعينين بنصوصها للاستدلال والتوضيح والاستنتاج، وسأتجنب الدخول في تفاصيل موضوعات بحثنا، إلَّا بالقدر الذي يكون ضرورياً للوصول إلى ما نرنو إليه.

المرحلة الأولى: النشأة والتكوين.

ما دامت رحلات الحج إحدى قنوات انتشار الإسلام وحضارتهِ، ونتيجة من نتائجهِ في بلاد

(*) كلِّية المأمون الجامعة / بغداد.

السودان الغربي، وما دام وصول الإسلام إلى تلك البلاد من جهةِ الشمال حيث بلاد المغرب والصحراء الغربية، فسنبدأ مع رحلةِ رجلٍ من مناطق الشمال وبالتحديد من الصحراء، فمن هو هذا الرجل ؟ ولماذا وكيف كان لِحجَّتِهِ التأثير المتميز في السودان الغربي ؟

إنَّ هذا الرجل هو يحيى بن إبراهيم الجِدالي، وجِدالةٌ هي إحدى قبائل (صنهاجة) الصحراء الغربية، تلك القبيلة التي استطاعت مع قبيلتين صنهاجيتين هي (لمتونة) و (مسوفة) من الالتحام في نوع من الاتحاد الصحراوي في القرن (٣هـ/ ٩م)، وليستمر هذا الاتحاد إلى القرن (٥هـ/ ١١م) حيث تولَّى زعامته، يحيى بن إبراهيم الجِدالي[٣].

نال يحيى بن إبراهيم اهتمام كُتَّابنا التراثيين من جغرافيين ومؤرخين، ويعود السبب في ذلك إلى حجَّتِهِ إلى بيت الله (ﷻ)، وما ترتَّب على هذهِ الحِجَّة من نتائج مباشرة، وأخرى بعيدة المدى في بلاد المغرب والصحراء وبلاد السودان الغربي.

مع تولِّي يحيى بن إبراهيم رئاسة الاتحاد الصنهاجي الصحراوي، خرج إلى الحَج، وهذا ما سجَّله معاصره الجغرافي البكري (٤٠٤-٤٨٧هـ/ ١٠١٤-١٠٩٤م)[٤]، وتبعه في تأكيد ذلك كُلُّ مَنْ كتب بعده عن يحيى بن إبراهيم، أمَّا عن تاريخ هذهِ الرحلة فلا يمكن تحديده بالضبط لاختلاف الروايات فيها، والمُرجَّح أنَّها كانت سنة (٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)[٥].

خرج رئيس الاتحاد الصنهاجي الصحراوي يحيى بن إبراهيم الجِدالي لقضاء فريضة الحَج وفي صُحبةِ مجموعةٍ من رؤساءِ قومهِ، منطلقاً من الصحراء حيث ربوع قبيلته جِدالة مُستخدماً طريق القوافل التجارية الصحراوية (وهو طريق الحُجَّاج أيضاً)، والذي يسير باتجاه الشمال إلى بلاد المغرب الأقصى، ثمَّ الأوسط والأدنى (أفريقية)، ومنها إلى مصر ثمَّ الحجاز ذهاباً وإياباً، وفي طريق الحَج هذا كانت قوافل الحُجَّاج تتوقف عند المدن الشهيرة للاستراحةِ والإفادة، في رحلة العودة من الحَج زار يحيى بن إبراهيم الجِدالي ومرافقوه مدينة القيروان، التي كانت مركز الثقافة والفكر في بلاد المغرب آنذاك، وفي القيروان، وبالتحديد في مسجد القيروان، شَهِدَ يحيى بن إبراهيم مجلس عِلمٍ للفقيه المالكي أبي عِمران الفاسي الغفجومي. وقد سجَّل البكري المُعاصر لهذهِ الرحلة وتبعه عددٌ ممَّن كتب عنها من كُتَّابنا التراثيين، ما جرى في هذا اللقاء بين يحيى وأبي عِمران، والذي يهمنا ما نتج عن هذا اللقاء، وهو إدراك يحيى قلَّة معرفتِهِ وقومهِ بالعقيدة الإسلامية، فاندفع يسأل أبا عِمران أنْ يُرسل معه أحد تلاميذه ليُعلِّمه وقومه الصنهاجيين أصول الإسلام الصحيحة، ولَّما لم يجد أبو عِمران من بين تلاميذه مَن له رغبة في ذلك دَلَّه على رجلٍ من تلاميذهِ، وهو الفقيه وجاج بن زلو (زلوى) اللَّمطي صاحب مدرسةٍ للفقه المالكي تُسمَّى (دار المُرابطين) بملكوس في السوس في المغرب الأقصى ليُساعده في إجابةِ طلبهِ، فرحل يحيى من إبراهيم حيث وجاج فوجد عنده بغيته، فقد رشَّح له الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي وليصحبه يحيى معه إلى ربوع قبائل صنهاجة في الصحراء من أجل تعليمهم مبادئ الإسلام الصحيحة[٦].

هكذا جاءت بوادر نتائج رحلة حَج يحيى بن إبراهيم، حيث تمكَّن عبد الله بن ياسين بعد اجتياز مرحلةٍ من الصعوبات، من أنْ يجعل من المجموعة

التي جمعها حوله من الأتباع الصنهاجيين الصحراويين، قوَّة قادرة على مسكِ زمام السيطرة على الصحراء جميعها[٧].

ومن ثمار رحلة حَج يحيى بن إبراهيم المبكرة، تمكَّن عبد الله بن ياسين من أنْ يخلق من الصنهاجيين قوةً قادرةً على الانبثاق السياسي والاقتصادي ذات عقيدةٍ إسلامية قوية، وقد وصف هذهِ القوة أحد المُستشرقين وصفاً دقيقاً وصحيحاً قائلاً: إنَّها قوة دافعة جديدة جعلت من الصنهاجيين الصحراويين قادرين على إنجاز مَا لَم يسبق له مثيل[٨]. فقد حمل عبد الله بن ياسين المُرابطين الصنهاجيين إلى الشمال حيث بلاد المغرب الأقصى لأول مرةٍ في تاريخ قبائل صنهاجة الصحراء[٩]، وتمكَّن المرابطون بجهودهم من فرض سيطرتهم على المغرب الأقصى وأسَّسوا كياناً سياسياً لهم، كان أول حكَّامه أبو بكر بن عمر اللمتوني[١٠]، تبعه يوسف بن تاشفين وأولاده وأحفاده الذين تمكَّنوا من إقامة دولةٍ قوية واسعة الأطراف شَملت المغرب الأقصى وجزءاً من المغرب الأوسط والأندلس والصحراء الغربية وبلاد السودان الغربي.

والذي يعنينا في بحثنا هذا هو توجه المُرابطين الصنهاجيين جنوباً إلى بلاد السودان الغربي، والذي بدأ بتوجيه عبد الله بن ياسين حملةً عسكرية سنة (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) نحو مدينة أودغست (في الحدود الشمالية لبلاد السودان الغربي) والسيطرة عليها وإخراج عاملها التابع إلى مملكةِ غانه السودانية الوثنية[١١]. كما قاد أمير المُرابطين عمر بن يحيى اللمتوني حملاتٍ عسكرية نحو السودان الغربي استمرت حتَّى وفاتهِ سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)[١٢]، هكذا كان الجهد المبكر للمُرابطين في السودان الغربي من أجلِ نشر الإسلام وجعلها تابعةً إدارياً لهم، والذي لم يذهب هباءاً، بل ظهرت آثاره واضحةً في تعزيز الوجود الإسلامي في أراضي مملكةِ غانه، كما سجَّل البكري المعاصر للأحداث هذهِ، ذاكراً أنَّ عاصمة مملكة غانة السوننكية منقسمة إلى قسمين مدينة للمسلمين ومدينة للملك وأتباعه، وحتَّى في مدينة الملك نجد وجوداً واضحاً للمسلمين أيضاً، بل أنَّ هذا التواجد كان أبعد من هذا، فقد شارك المسلمون في إدارة مملكة غانة السودانية الوثنية، وأنَّ ملكها اختار من المسلمين من ذوي الخبرة والمقدرة ليكونوا وزراء ومستشارين وإداريين ماليين[١٣]، إدراكاً منه على ما نذهب لقيمة ما عند المسلمين من نُظُمٍ إدارية، وأنَّ تطبيقها في إدارة مملكة غانة ضروري. إنَّ هذا التغيير في النظام الإداري في السودان الغربي يُعد المرحلة الأولى من مراحل تبنِّي النُّظُم الإدارية الإسلامية في تلك البلاد، وبالرغم من عدم معرفتنا بأبعاد النظام الإداري في غانة، وكم من النُّظُم الإدارية الإسلامية استطاع الموظَّفون الإداريون المسلمون من إنجازها في هذهِ المرحلة، لكننا نقول إنَّ نشأة النُّظُم الإسلامية في السودان الغربي قد بدأت.

ومن نتائج رحلة حَجِّ يحيى بن إبراهيم الجِدالي المتميزة وذات الأثر الطويل المدى في السودان الغربي، كانت جهود أبي بكر اللمتوني أول حكَّام الدولة المُرابطية، وقد سجَّلت مصادرنا التراثية معلوماتٍ عن ذلك، وإنْ كانت لا تتناسب مع جهود أبي بكر في بلاد السودان والتي لم يسبق لها مثيل في نتائجها.

أفرد ابن أبي زرع الفاسي (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) عنواناً عن دولة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني المُرابطي، فعرَّف بهِ وقال إنَّ توليته كأمير للمُرابطين كان

من قبل عبد الله بن ياسين سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، وأنَّه عندما انصرف إلى الصحراء، بعد تنازلهِ عن الحكم في الشمال إلى ابن عمِّهِ يوسف بن تاشفين، قام يُجاهد في بلاد السودان حتَّى استُشهد في إحدى غزواتهِ سنة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)[١٤]. وأكَّد ذلك ابن عذاري[١٥].

والذي يخصنا من جهد أبي بكر العسكري والذي استمر على أقلِّ تقديرٍ خمس عشرة سنة، هو انتشار الإسلام الواسع في تلك البلاد[١٦]، بل وإعلان الإسلام السياسي فيها، أي قيام حكوماتٍ إسلامية سودانية هناك، وهذا يعني الكثير. ففي نصٍّ مهم دوَّنه الجغرافي الأندلسي الزُّهري القريب من هذهِ الأحداث، جاء فيه: "إنَّ سكَّان غانة كانوا يتمسكون بالكفر فيما سلف وحتَّى خروج أبي بكر، وإنَّهم أسلموا في مدَّة لمتونه (دولة المُرابطين) وحَسُنَ إسلامهم وكذلك إسلام ملوكهم"[١٧]. وأكَّد مُعاصر الزُّهري الجغرافي الإدريسي (٤٩٣-٥٥٩هـ/ ١١٠٠-١١٦٦م) هذهِ المعلومة[١٨]. كما أكَّد هذا القول صاحب (الحُلَل الموشية) مشيراً إلى أنَّه في سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) في أيام الدولة المُرابطية، أسلم أهل بلاد السودان، وأسلمت حاضرة غانة وحَسُنَ إسلامهم[١٩]. إنَّ مثل هذهِ النصوص المهمة تؤكِّد لنا إعلان الإسلام السياسي في السودان الغربي بفضل جهود أبي بكر اللمتوني، وهذهِ ثمرة أخرى من ثمار رحلة حَج يحيى بن إبراهيم بالتأكيد.

لم يُسلم حُكَّام غانة فقط على يدِ اللمتوني المُرابطي أبي بكر، بل ربطوا مملكتهم إدارياً بدولةِ المُرابطين ولمدَّةٍ قصيرة (ثلاث سنوات)، بعدها أعلن حُكَّام غانة السودانيون المسلمون ارتباطهم سياسياً بالخلافة العباسية في بغداد، بل ذهبوا إلى تبنِّي النَّسب العربي الشريف وأنَّهم من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)[٢٠]، ولم يقتصر إعلان الإسلام السياسي في السودان الغربي على مملكةِ غانة، بل شَمِل ممالك أخرى أصغر شأناً من غانة، مثل التكرور وملل (مالي) وغيرها.

إنَّ التغير السياسي الواسع في السودان الغربي[٢١]، لا بدَّ أنْ يُصاحبه تغيراتٍ في نُظُم الحكم والإدارة في تلك الممالك المسلمة، ونقصد بذلك تحول هذهِ النُّظُم من النَّمط الوثني إلى النَّمط الإسلامي، وهذا ما نقصده بمرحلةِ التكوين.

بعد أنْ شعر حُكَّام السودان الغربي وفي مقدمتهم حُكَّام مملكة غانة بانتمائهم إلى الإسلام دينياً ودنيوياً، بدأوا بإعادة بناء نظام الحكم عندهم (ونُظُم الحياة الأخرى) بشكلٍ جديد، فضلاً عن جهودهم في توسيع نطاق انتشار الإسلام في السودان الغربي، وهنا نجد من المهم أنْ نسجل ما قاله عنهم الزُّهري: إنَّ حُكَّام غانة وأكابرهم "ساروا إلى مكَّة وحَجُّوا وزاروا وانصرفوا إلى بلادهم وأنفقوا أموالاً كثيرة في الجهاد"[٢٢].

من هذا النص نستطيع القول: إنَّ حُكَّام غانة السودانيين المسلمين كان لهم قصب السَّبقِ في أداء فريضة الحج ومعهم أعيان بلدهم في القرن (٦هـ/ ١٢م)، وأنَّهم بعد رجوعهم من الحَجِّ كرَّسوا جهودهم وأموالهم في الجهاد، وكذلك في إصلاح شؤون بلادهم، ومنها نُظُم الحكم والإدارة، وقد ذهب أحد المُستشرقين إلى أنَّ حِجَّة ملوك غانة ما هي إلَّا تقليد لِحِجَّة يحيى بن إبراهيم الجِدالي أمير دولة المُرابطين[٢٣]. ونؤيد

هـذا القول، كما نُضيف هنا أنَّ الحُكَّام السـودانيين وجدوا في هذا التقليد لحُكَّام المسـلمين في الشـمال ضرورياً دينيـاً ودنيوياً، بل وبعد نهايـة مملكة غانة في مطلع القرن (٧هـ/ ١٣م) على يدِ حُكَّام مملكة مالي الإسـلامية الناشـئة في السـودان الغـربي[٢٤]، وسيسـتمر اهتـمام حُكَّامهـا في أداء فريضـة الحَـج والإفـادة منهـا دينياً ودنيوياً، وكذلـك فعل حُكَّام سـنغاي المسـلمين بعدهم، والذي سـنعدَّه مرحلة التطويـر.

المرحلة الثانية: التطوير.

في هـذهِ المرحلة كان لحَـجِّ الحُكَّام السـودانيين لدولتـي مـالي والسـنغاي وابتـداءاً مـن القـرن (٧هـ/ ١٣م) وحتَّى القرن (١٠هـ/ ١٦م) الفضل في تطويـر بـلاد السـودان الغـربي في شـتَّى مجالات الحيـاة، ومنهـا إغناؤهـم لنُظُم الحكـم والإدارة في ممالكهم.

لقـد أدرك حُـكَّام مـالي والسـنغاي سريعـاً أنَّ رحـلات الحَج تُشـكِّل قنـاةً مهمـة في تعزيز مبادئ الإسـلام في بلادهم، وتنشـيط التماسك والتضامن بـين الحاكـم والمحكوم، بـل وأدركـوا أنَّ رحلات الحَـج تُعـد مصـدراً مهـماً للإصـلاح والتطويـر في أنظمة إدارتهـم وحكمهم لممالكهـم، ويذهب أحد المُستشرقين إلى أنَّ نتائج حَجِّ حُكَّام السودان الغربي كانـت في الغالب نتائج إيجابيـة ومباشرة[٢٥]. وهذا رأيٌ صائب على ما نرى، من خلال تتبُّع سِيَر حُكَّام مملكتي مالي والسنغاي.

وممَّـا يُلاحـظ أنَّ رحـلات حَـج حُـكَّام بـلاد السودان الغربي المسـلمين كحُكَّام مالي والسنغاي، بـل وحتَّـى حُـكَّام غانـة، قـد أثـارت تسـاؤلاتٍ ونقاشـاتٍ بين بعض المُسـتشرقين المهتمين بالكتابة عن تاريخ الإسـلام في أفريقيا الغربية، فعلى سـبيل المثـال: أثـار المُسـتشرق البريطـاني جـون سـبنسر ترمنجهـام John Spencer Trimingham (١٩٠٤-١٩٨٧م) تسـاؤلاً عـن السـبب وراء ذهـاب الحُـكَّام السـودانيين المسـلمين الأوائل إلى الحَج ؟ فجاء السـبب من وجهة نظرهِ: أنَّ رحلات حَجِّهم هـذهِ جاءت لتعزيز مكانة حُكَّام السـودان الغـربي في الديـن الجديـد، مع وجود مَـن بقي على الوثنيـة في بلادهم، فالحَج كشَـعيرة إسـلامية دينيَّة يمكن أنْ يزيد في مكانة الملك في عيون المسلمين في بلادهِ وهم أقليَّة[٢٦].

لقد ردَّ على رأي ترمنجهام المُستشرق ليفتزون Nehemia Levtzion بالقول: إنَّ هذا المُقترح الـذي قدَّمه ترمنجهام، والذي يحمل وجهة نظرهِ، لا يصمـد أمام الترحاب الـذي كان يلقاه الحُجَّاج الحُكَّام في مدن مالي والسـنغاي من جميع سـكَّانها، وأنَّ بركة رحلات الحَج هذهِ كان تشـمل الجميع. واعتمد هذا المُسـتشرق في دعـم رأيهِ على رواياتٍ شـفوية لقبائـل سـودانية[٢٧]، وهنـا لا بـدَّ مـن أنْ نُضيـف القـول إنَّ المُسـتشرق ترمنجهـام لم يُدرك أنَّ الحَـج فريضـة عـلى كلِّ مسـلمٍ ومسـلمة، ولم يحـاول أنْ يعـرف أنَّ للحَـج فوائد دينيَّـة ودنيوية أيضـاً، جاء تأكيدهـا في آياتِ القـرآن الكريم، بل أهمـل متعمداً مـا أفرزته رحـلات الحَـج للحُكَّام السـودانيين المسـلمين مـن نتائـج مهمـة ومتنوعة لهم ولشـعوبهم لتطوير جوانـب الحياة الاقتصادية والاجتماعيـة والفكرية، بل وفي إثـراء نُظُم الحكم والإدارة، وكلَّ ذلـك نجـده في نصـوص مؤلَّفاتنا التراثيـة التي قرأهـا ترمنهجام. وسـنوجه اهتمامنا إلى أشـهر رحـلات الحَج لحُـكَّام مالي والسـنغاي لنُثبت ما نهدف إليه.

تُعد مملكة مالي من الممالك القديمة في السودان الغربي، وقد عرفت الإسلام قبل الحركة المُرابطية وبعدها، وأنَّ نجمها بدأ بالظهور مع أوائل القرن (٧هـ/ ١٣م)، لتصبح في منتصفهِ قوة ذات تأثير متميز في السودان الغربي[٢٨]، والذي يعنينا من مملكة مالي رحلات الحَج التي قام بها حُكَّامها، وآثار هذهِ الرحلات المهمة.

سجَّل ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م) نقلاً عن أحدِ فقهاء السودان الغربي والذي زار مصر في طريقهِ إلى الحَج سنة (٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، قائلاً إنَّ: "أول مَن أسلم من حُكَّامهم (حاكم مالي) ملكٌ اسمه برمندانه... وحجَّ هذا الملك واقتفى سُنَّتَهُ في الحَجِّ ملوكهم من بعدهِ"[٢٩]، وكرَّر هذهِ المعلومة القلقشندي (٧٥٦-٨٢١هـ/ ١٣٥٥-١٤١٨م) أيضاً[٣٠]. فرحلة الحَج كانت واجباً على كلِّ مَن اعتلى عرش مالي وهي من سُنَنِهم، وإذا ما عرفنا أنَّ عدد حُكَّام مالي منذ القرن (٧هـ/ ١٣م) وحتَّى نهايتها يتجاوز الثلاثين ملكاً[٣١] وأنَّ جميعهم (أو أغلبهم) قد أدَّى فريضة الحَج، أدركنا حجم حصيلة وثمرة هذهِ الرحلات.

وسنقصر كلامنا عن أشهر رحلات الحَجِّ لحُكَّام مملكة مالي، وهي رحلة حَج (منسا موسى) سنة (٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م)، والذي عُدَّ من "أعظم ملوك المسلمين في السودان الغربي، وأوسعهم بلاداً، وأكثرهم عسكراً، وأشدهم بأساً، وأعظمهم مالاً، وأحسنهم حالاً..."[٣٢].

كانت رحلة حَج هذا الحاكم الشهير (منسا موسى) قد تمَّت بطريقةٍ مثيرة، وعلى جانبٍ من الأُبَّهة والفخامة حسب ما وصلنا من أوصافها[٣٣]، ممَّا لفت أنظار العالم الإسلامي والأوربي إلى عظمة وثراء مملكة مالي السودانية الإسلامية[٣٤]. ولم يخرج (منسا موسى) حاكم مالي في رحلة حَجِّهِ هذهِ لوحدهِ، بل كان يصحبهُ موكبٌ ضخم فيه وزراء وإداريون وعدد من وجوه القوم في مملكة مالي[٣٥].

أمَّا عن ثِمار رحلة حج (منسا موسى) والمرافقين له، فنقول: إنَّ حاكم مالي الحاج (منسا موسى) بعد رحلة حَجِّهِ اندفع بحماس لمتابعة ما يريد إنجازه في مملكتهِ على الصعيدين الخارجي والداخلي، فخارجياً عَمِل على تطوير العلاقات بين مملكة مالي ومصر المملوكية على مختلف الأصعدة، كما أقام علاقاتٍ متطورة مع بني مِرين حُكَّام المغرب الأقصى، وقد تنوعت هذهِ العلاقات فكانت في مجال الدبلوماسية والتجارة وميدان الثقافة والفكر[٣٦].

وفي السياسة الداخلية نجد أنَّ رحلة (منسا موسى) قد أثرت على جوانب الحياة المختلفة في مملكة مالي الإسلامية، ومنها نُظُم الحكم والإدارة فيها. وهنا يبرز سؤال يطرح نفسه، وهو: هل أنَّ وجود الإداريين من وزراءٍ وولاةِ أقاليم وغيرهم ضمن المجموعة المرافقة لـ(منسا موسى) في رحلةِ حَجِّهِ، أتاحت لهم الفرصة ولملكهم بالإطلاع على ما في الأقاليم التي شَمِلتها رحلتهم من نُظُم حكمٍ وإدارة ؟ فالجواب بالإيجاب على ما أذهب.

لقد وفَّق (منسا موسى) وموظَّفوه الإداريون بعد العودة من رحلةِ الحَج في مشروعاتهم السياسية والإدارية والعسكرية، وأنَّ الأوصاف التي وصفت بها إنجازات حاكم مالي يستحقها بجدارة[٣٧]. فقد نجح (منسا موسى)، يُسانده موظَّفوه في تنظيم وإدارة شؤون دولتهم المُترامية الأطراف، حتَّى عُدَّت حكومة مملكة مالي أنموذجاً

لحكومات غرب أفريقيا[٣٨]، وأنَّ الأثر الإسلامي في نُظُم الحكم والإدارة فيها كان واضحاً وبارزاً، وكما سنفصل لاحقاً.

أمَّا عن حاكم مملكة سنغاي، الذي ارتبط اسمه برحلةِ حَجٍ شهيرة، فكان أسكيا مُحَمَّد بن أبي بكر الطوري مؤسِّس أسرة أسكيا التي حكمت السنغاي من نهاية القرن (٩هـ/ ١٥م) إلى نهاية القرن (١٠هـ/ ١٦م)[٣٩]، وقد شَهِدَت مملكة سنغاي أيامه تطوراً سياسياً وإدارياً وحضارياً[٤٠].

توجَّه الأسكيا مُحَمَّد في سنة (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) إلى الحَجِّ مُصطحباً معه جماعةً من الأعيان والوزراء وأمراء النواحي والقضاة والعلماء، فضلاً عن (١٥٠٠) من الأجناد[٤١]، وبالرغم من أنَّ رحلة حَجِّ أسكيا مُحَمَّد حاكم سنغاي لم تَنلْ من الشهرة ما نالته رحلة (منسا موسى) حاكم مالي، إلَّا أنَّ ثمارها كانت واضحةً على نُظُمِ حكمهِ وإدارتهِ.

فقد تمكَّن حاكم سنغاي أسكيا مُحَمَّد أثناء وجودهِ في مكَّة بالالتقاء بأمير مكَّة الذي يُسمِّيه المؤرخ الأفريقي محمود كعت (١٥٤٨-١٥٩٣م) بالشريف الحَسَني مولاي العباس[٤٢]. وقد أقرَّ هذا الشريف له بأنَّه خليفة المسلمين بأرضهِ، وأنَّ عليه أنْ يخلع صفة المُلك عنه فوافق، فألبسه الشريف الحَسَني قلنسوةً خضراء وعمامة بيضاء وأعطاه سيفاً وأشهد الجماعة الحاضرين أنَّه خليفة بأرض التكرور (بلاد السودان الغربي)[٤٣]. ويُكمل محمود كعت تتبع هذا الأمر فيذكر، أنَّ الأسكيا مُحَمَّد عندما نزل في القاهرة في رحلة عودتهِ من الحَج تهيَّأت له فرصة اللقاء مع الشيخ الفقيه عبد الرحمن السيوطي، فاستشاره في موضوع الخلافة، فوافقه ذاكراً: أنَّ صفات الخير والصلاح والعدل عنده تؤهله لذلك، كما أقرَّ علماء آخرون على ما صرَّح بهِ السيوطي[٤٤].

ومن النصوص التاريخية المهمة التي سجَّلها محمود كعت هذهِ، يتَّضح لنا: أنَّ حِجَّة حاكم سنغاي الأسكيا مُحَمَّد عادت عليه بالفوائد الدينيَّة والدنيوية، فقد استثمرها في استشارةِ العلماء، ومنهم السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ/ ١٤٤٥-١٥٠٥م)، حول تغيير نظام حكمهِ من "ملكي" إلى "خلافي"، فضلاً عن استشارتهِ حول مشاكل تخص إدارتهِ لبلادهِ. وإذا ما تابعنا ما أنجزه هذا الأسكيا بعد عودتهِ من رحلة الحَج، نجد أنَّه عَمِل على التجديد في بلادهِ[٤٥].

عَمِل الأسكيا مُحَمَّد بعد عودتهِ من الحَج على الإصلاح، فأقام الحقوق والواجبات التي يفرضها الإسلام على المسلمين في مملكتهِ[٤٦]، وعَمِل على إصلاح حكمهِ وإدارة بلادهِ، وفي هذا الجانب سجَّل محمود كعت القول: إنَّ الأسكيا مُحَمَّد بعد أنْ "ثبتت له السلطة واستقامت له المملكة خرج من ذلك كُلِّهِ، وجعل يسأل العلماء والعاملين عن سُنَّةِ رسول الله (ﷺ) ويمشي على أقوالهم، حتَّى اتفق جميع علماء عصرهِ على أنَّه خليفة..."[٤٧]. كانت رغبة الأسكيا مُحَمَّد في تطبيق ما جاء بهِ الإسلام من أُسسٍ وقوانين تخص الحكم والإدارة نابعةً من نفسهِ، فجاءت رحلة حِجهِ لتُمكنه من ذلك، وهنا نتفق مع قول أحد المُستشرقين: من أنَّ سياسة الأسكيا مُحَمَّد في بلادهِ قد حصلت على قوةٍ دافعة بعد رحلتهِ إلى مكَّة، ومع مَا قاله بعض الباحثين المهتمين بمملكة السنغاي من أنَّ الوظائف الإدارية في هذهِ المملكة وجدت بعد رجوع الأسكيا مُحَمَّد من حَجِّهِ وإطلاعهِ على ما كان يوجد بالمشرق[٤٨].

وإذا أردنا أنْ ننظر نظرةً إجمالية على أثر رحلات الحَج لحُكَّام السودان الغربي، فنقول: إنَّها أعطت زخماً قوياً لإثراء نُظُم الحكم والإدارة في بلادهم، وأنَّ لقاءاتهم مع أصحاب السلطة والإدارة في البلاد التي مروا بها أثناء رحلاتِ حَجِّهم، كانت مُعيناً لهم في إصلاح وتطوير ما عندهم من نُظُمِ حكم وإدارة، وسنحاول جاهدين على إثبات قولنا هذا باستعراضٍ مُكثَّفٍ لأهمِّ الوظائف والمؤسَّسات الإدارية في ممالك السودان الغربي في مرحلتي تكوينها وتطويرها.

الوظائف والمؤسَّسات الإدارية:

شكَّل حُكَّام السودان الغربي المسلمين في بلادهم جهازاً إدارياً من أجلِ إدارة البلاد التابعة لسلطتهم السياسية، تتكون من مجموعةٍ من الوظائف والمؤسَّسات التي وجدت لتلبية حاجة تلك البلاد، ودعماً لمُستلزمات الكيان السياسي المركزي الذي اعتمد في حكمهم لبلادهم، وسنعمل على تمييز الوظائف والمؤسَّسات ذات الجذور القديمة في أيام الحكم الوثني، ثمَّ نتتبَّع ما أحدثه الحُكَّام السودانيون المسلمون من تجديدٍ واستحداثٍ لتطوير نُظُم حكمهم وإدارتهم، والذي كان لرحلات حَجِّ الحُكَّام السودانيين أثرٌ في إثرائها.

ولا بدَّ من التنويه بأنَّ الإسلام والمسلمين لم يعملوا على رفض كلَّ ما عند حُكَّام تلك البلاد، بل نجدهم وافقوا على إبقاء العديد من الوظائف الإدارية ومؤسَّساتها ما دامت لا تتعارض مع النُّظُم الإسلامية، فدعموا وجودها بالتصحيح والإضافة حيث وجدت الحاجة إلى ذلك، وسنعرضها كالآتي:

١. المملكة ونظام الحكم:

المملكة مؤسَّسة قديمة في السودان العربي، والذي يهمنا وضعها عند وصول الإسلام والمسلمين إلى تلك البلاد، وعن هذا يُخبرنا البكري أنَّ بلاد السودان الغربي كانت منقسمةً أيام وثنيتها إلى عددٍ من الممالك في أيامهِ (القرن ٥هـ/ ١١م)، بعضها صغير والآخر أكبر، ويبدو أنَّ عددها لم يكن بالقليل[٤٩].

كان نظام الحكم في ممالك السودان الغربي الوثنية مَلَكياً وراثياً يُعطي حقَّ التوريث السياسي للملك في حكم المملكة لابن الأخت فقط[٥٠]. ويُعلِّل البكري هذهِ الظاهرة، وذلك لتوفر اليقين لدى الملك مِن صِلة ابن أختهِ النسبية بهِ[٥١]. وربما يمكن أنْ نُضيف إلى هذا ما قيل إنَّ مبدأ التوريث لابن الأخت للسلطة عند السودانيين، يعود إلى حفظ نظام الأُمومة المعروفة عند الشعوب القديمة[٥٢].

والشيء المؤكَّد منه أنَّه مع إعلان الإسلام السياسي في السودان الغربي جاءت نهاية نظام التوريث لابن الأخت ليحل محلَّه انتقال الحكم بالوراثة في البيت الحاكم بين الأبناء والأخوة، ولدينا في مصادرنا التراثية أمثلةً وأدلة كافية على ذلك، لاسيَّما وأنَّ الانتساب إلى الأب هو من قِيَم ومبادئ الإسلام ولا يمكن للمسلم إلَّا العمل بها.

تمسَّك الحكَّام السودانيون المسلمون بالتغيير الجزئي في نظام الحكم الملكي الوراثي، فـ(منسا موسى) حاكم مالي أعلن أمام الأمير أبي الحسن علي ابن أمير صاحب والي مصر، أثناء نزولهِ في القاهرة بعد رجوعهِ من رحلةِ الحج بتمسكهم بمبدأ وراثة الأبناء بعد الآباء، بقولهِ: ((نحن بيت نتوارث

المُلك))[٥٣]. كما نجد أنَّ حكَّام السنغاي هم أيضاً كانوا متمسكين بنظام توريث الحكم للأبناء[٥٤].

كانت مركزية الحكم من سِمَات نظام الحكم في السودان الغربي، حيث ارتبطت جميع المدن والأقاليم إدارياً بالسلطة المركزية في العاصمة، كما سنفصل لاحقاً، وعليه اقتضى الحال بأنْ يتولَّى السلطة وريثٌ واحد فقط[٥٥]، لذا لا نجد في مؤلَّفات تراثيينا ما يُشير عكس ذلك.

ومن الضروري القول، إنَّ نظام الحكم الذي اتَّبعه الحكَّام السودانيون المسلمون لم يعد يعتمد على الوحدة الإثنية، التي انتهى وجودها في الحكومات السودانية المسلمة، وحلَّ محلَّها الوحدة السياسية الإسلامية، وكان ذلك سبباً في استقرار تلك الحكومات وقوتها[٥٦].

إنَّ هذا النظام السياسي المتطور قد شَهِدته مملكة مالي، ولا بدَّ أنْ يكون لرحلات حَجِّ حكَّامها إسهاماً في هذا التطور، إذا ما وضعنا باعتبارنا ما جرى من أحاديث في الاجتماعات الطويلة بين الحاج حاكم مالي ووالي مصر حول طبيعة النظام السياسي والإداري في مملكة مالي، والذي سبقت الإشارة إليه، ولعلَّ ما حدث في مكَّة من حديثٍ بين أحد أمرائها والحاج حاكم السنغاي عن تغيير نظام الحكم من نظامٍ ملكي إلى نظامٍ خلافي، وتأييد علماء المسلمين في مصر والمغرب لهذا التغيير كما أسلفنا، ولذا تلقَّب الأسكيا مُحَمَّد بلقب أمير المؤمنين[٥٧]. إنَّ كلَّ هذا ما كان ليحدث لولا مَا أفرزته رحلات الحج للحكَّام السودانيين.

أمَّا عن صلاحيات ومهام حكَّام السودان الغربي المسلمين، فهي لا تختلف عن صلاحيات أقرانهم في أقاليم الدولة العربية الإسلامية، وأنَّ العلاقة بين الحكَّام ورعيتهم كانت علاقةً إيجابية ما دام الحكَّام السودانيون يهتمون بشؤون البلاد، ويطبقون في إدارتها ما يفرضه الإسلام من عدلٍ، ورعايةٍ، وأمانٍ، واستقرار لرعاياهم.

٢. نائب المملكة:

النائب لقب يُطلق على (القائم مقام السلطان في عامَّةِ أمورهِ أو غالبيتها، كما ذكر القلقشندي)[٥٨]. ووظيفة النائب مُستحدثة ظهرت في عهد الحكومات السودانية الإسلامية، فلم نعثر على ما يُشير إليها في بلاد السودان الغربي في العهد الوثني.

في إدارة مملكة مالي لدينا نصوص تؤكِّد استحداث هذهِ الوظيفة، فابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ/ ١٣٠٤-١٣٧٧م) الذي زار مالي في زمن حاكمها (منسا سليمان)، يذكر أنَّ اسم النائب فيها (قنجا)، وأنَّه التقى بقنجا موسى نائب (منسا سليمان) في المجلس الرسمي لهذا الحاكم[٥٩]. أمَّا العمري فسجَّل لنا نصين مهمين عن نائب السلطة في مالي، الأول مفاده أنَّ (منسا موسى) عندما قرر الذهاب إلى الحج ((استناب بها ولده مُحَمَّد))، أمَّا النص الثاني فجاء فيه أنَّ علي بن ماري جاطه حاكم مالي، كان قد استخلف (منسا موسى) عندما قرر القيام برحلةٍ بحرية لاكتشاف مجاهل المحيط الأطلسي، ولعدم عودتهِ تولَّى (منسا موسى) السلطة في مالي[٦٠]. وبهذا نجد أنَّ نائب المملكة في السودان الغربي كان يتولَّى شؤون المملكة عند غياب الحاكم عنها، ومن المؤكَّد أنَّ هذا الاستخلاف يمنح النائب صلاحياتٍ واسعة، وهي صلاحيات الحاكم الغائب.

ويبدو أنَّ لنائب المملكة مكانةً مهمة عند

الحكَّام السودانيين، فقد كان على رأس المدعوين لحضور جلسات الحاكم الرسمية وفي الاحتفالات الشعبية، وهذا ما شاهده ابن بطوطة عندما كان في مملكة مالي[٦١].

وفي مملكة السنغاي كان لنائب المملكة مكانةً مهمة عند حكَّامها أيضاً، فوظيفة تؤهله للاستخلاف في رئاسة الدولة عند غياب حاكمها، فقد استخلف الأسكيا مُحَمَّد أخاه عمر كمزاغ عند رحلتهِ إلى الحج، وذلك في إدارة مملكة السنغاي[٦٢].

كما كان النائب في مملكة السنغاي يشهد على المراسيم الملكية مع القضاة والولاة أيضاً، وهكذا يتَّضح لنا أهمية وضرورة وظيفة نائب السلطنة المُستحدثة في السودان الغربي.

٣. الوزارة:

تعدُّ الوزارة من الوظائف الإدارية الضرورية والمهمة في الجهاز الإداري في السودان الغربي، ووظيفة الوزارة لها جذور قديمة من أيام الحكم الوثني، واستمر وجودها بعد إعلان الإسلام السياسي في تلك البلاد.

وممَّا وصلنا إليه من معلوماتٍ عن الوزارة في السودان الغربي، تدلنا أنَّ الوزير هو المساعد والمعاون للحكَّام السودانيين في إدارة شؤون ممالكهم، وكان حكَّام غانة السوننكيين الوثنيين قد اتخذوا وزراءهم لهم ليُساهموا في تحمل أعباء المملكة معهم[٦٣]. والأهم من هذا نذكر أنَّ وصول المسلمين واستقرارهم في مملكة غانة منذ وقتٍ مبكِّر كان له أثره في نُظُم المملكة، كما أسلفنا، ففي القرن (٥هـ/ ١١م) نجد أنَّ أكثر وزراء الحاكم الوثني في غانة من المسلمين الموجودين في بلادهِ[٦٤]. وهذا يُدلِّل على رغبة الملك السوداني في تطوير جهازهِ الإداري فجعل غالبية وزرائهِ من المسلمين، مع بقاء بعض الوزراء الوثنيين معهم، ربما من أجل التدريب على ممارسة نُظُم الوزارة وتعليمهم أُسسها الإسلامية، وهكذا أصبحت الوزارة وظيفة ذات أُسس إسلامية في بلاد السودان الغربي.

وفي مملكة مالي الإسلامية نجد ما يُشير إلى تطوير وظيفة الوزارة، حيث التخصص الوظيفي الذي عُرفت بهِ حكومة هذهِ المملكة، فقد استحدث حاكم مالي منظومةً من الوظائف الإدارية في مملكتهِ، والقائمة على أُسسٍ إسلامية، ومنحها الصلاحيات اللازمة بحيث جعل لكلٍّ منها جدول أعمال خاص بها يقوم بتنفيذهِ الموظَّف المختص، وبينها وأهمها الوزارة[٦٥].

عُرف الوزير بمملكة مالي باسم (صندكي) بلغتهم، وكانت له مكانة مهمة في الجهاز الإداري، حيث كان يتدخل بشؤون الحكم عندما يجد ضعفاً من الحاكم، وقد يستبد بالأمر من أجل الإصلاح[٦٦].

وفي مملكة السنغاي استمر منصب الوزير في جهازها الإداري مهماً، ولدينا ما يُشير إلى أنَّ حكَّام السنغاي اتخذوا عدداً من الوزراء لمساعدتهم في إدارة شؤون دولتهم[٦٧].

٤. الحجابة:

من المناصب الإدارية التي نجدها في ممالك السودان الغربي، ويبدو أنَّ جذورها قديمة في بلاد السودان[٦٨]، واستمر وجودها في العهد الإسلامي، فقد اتخذ حكَّام مالي حُجَّاباً لهم يقومون

بتنظيم مقابلات الناس لهم[٦٩]، ولدينا معلومةً فريدة مهمة دوَّنها العمري عن الحاجب في مملكة مالي وهو يصف مجلساً لحاكم مالي منسا سليمان، ذاكراً الحضور فيه من حراسٍ وأمراء وأعيان وفرسان عسكر، ثمَّ يسجل وجود الحاجب، قائلاً عنه: هو ((سفير بينه (الحاكم) وبين الناس يُسمى الشاعر))[٧٠]. من هذا النص يتبيَّن لنا: أنَّ وجود الحاجب كموظَّفٍ إداري في مجلس ملك مالي ضروري؛ للحاجة له في العملية التنظيمية. أمَّا عن تشبيه عمل الحاجب بمهام السفير فهو وصفٌ ذكي، لكون أنَّ وظيفة كلاهما تقتضي أنْ يعملوا كواسطةٍ في تنظيم العلاقة بين الحاكم ورعيتهِ بالنسبة للحاجب، والحاكم والدول الأجنبية بالنسبة للسفير. أمَّا عن تسميتهِ بالشاعر، فهي الأخرى تسمية ذكية، لكون أنَّ الحاجب يحتاج في عملهِ إلى اللباقة وحُسن التعبير والقدرة على إيصال ما يُراد منه.

٥. التُرجمان:

من الوظائف الإدارية المُستحدثة التي استحدثها الحكَّام السودانيون بعد وصول الإسلام والمسلمين إلى بلادهم، حيث أصبحت الحاجة مُلحةً إلى وجودها في الجهاز الإداري للممالك السودانية، ولتزايد أعداد المسلمين غير السودانيين في السودان الغربي لأغراض متنوعة واتساع علاقات ممالك السودان الغربي (السياسية والدبلوماسية والتجارية والفكرية) مع الأقاليم العربية في بلاد المشرق والمغرب.

فالمترجم يقوم بمهمة الحوار بين الملك السوداني وزائريه، لاسيَّما الوافدين على البلاد من الغرباء، وأول إشارة وصلتنا عن وجود هذهِ الوظيفة جاءت تخص مملكة غانة السودانية، حيث عَهَد ملكها الوثني هذهِ الوظيفة إلى المسلمين من ذوي الخبرة والمقدرة[٧١]. وهذا ما يُشير أنَّ الحاجة إلى التفاهم مع القادمين المسلمين من الشمال إلى أرض السودان الغربي كان لها أثر في إيجاد هذهِ الوظيفة.

وفي مملكة مالي علا شأن وظيفة التُرجمان، ونحن مدينون للرحَّالة ابن بطوطة في تعريفنا بوجود هذهِ الوظيفة الإدارية المُستحدثة في بلاد السودان الغربي، فهو يُخبرنا – كشاهد عيان – أنَّ الاسم الذي أُطلق على التُرجمان في مالي هو (دوغا)، وأنَّ له مكانةً مهمة ومهام يقوم بها، حيث يُختار من بين أفاضل الناس وكبارهم، وهو الواسطة بين حاكم مالي وزوَّارهِ، وأنَّ حضوره ضروري في المجالس الرسمية لحاكم مالي، واصفاً الأُبَّهة والفخامة في الزَّيِّ التي يظهر بها التُرجمان[٧٢]. كما شاهد ابن بطوطة وجود التُرجمان في مواكب حاكم مالي في العيدين (الأضحى والفطر) وفي الاحتفالات التي تُقام فيهما، كما نجد أنَّ التُرجمان يكون أحياناً مُعبِّراً عن لسان حاكم مالي في المواقف والقضايا التي تخص المملكة لاسيَّما السياسية منها[٧٣].

وممَّا يُلحظ أنَّ الحكَّام السودانيين كانوا في العادة لا يتحدثون بدون تُرجمان، وهذا ما أخبرنا بهِ العمري، حيث ذكر أنَّ (منسا موسى) ملك مالي خلال رحلةِ حَجِّهِ وفي مقابلتهِ ممثل سلطان مصر المملوكي (الناصر مُحَمَّد قلاوون)، كان لا يتحدث إلَّا بتُرجمانٍ مع إجادتهِ اللسان العربي[٧٤]، فالتُرجمان بهذا تكون أعباء وظيفته مهمة وخطيرة، فهو يُصاحب الملك في رحلاتهِ خارج بلاد السودان. وفي مملكة السنغاي استمر وجود وظيفة التُرجمان، حيث كان صاحبها يُرافق الحاكم في تجوالهِ في أرجاء مملكتهِ ويُخاطب الرعية بأمر الملك،

يُعْلمُهم رغباته في الإصلاح، كما يقوم بمُخاطبة الرعيَّة في المناسبات والأعياد، يُعْلِمهُم بهدايا وعطايا ملكهم[٧٥]. وهكذا اقتضت الضرورة إلى استحداث وظيفة التُرجمان.

٦. الكاتب:

وظيفة من الوظائف الضرورية لكلِّ مملكةٍ لا يمكن الاستغناء عنها؛ وذلك لأنَّ الكاتب هو المُعبِّر الرسمي عن آراء الحكَّام السودانيين وأفعالهم، يُنظِّم العلاقة بين الحاكم والرعية، وهي من الوظائف المُستحدثة في السودان الغربي، ولتأكيد أهمية عمل الكاتب نُسجل أمثلةً عن مهامهِ وأعمالهِ.

ففي مالي نجد أنَّ حاكمها (منسا موسى) عُرف أنَّه كان في الغالب لا يكتب شيئاً بل أمره كان بالقول، وأنَّه كان يوكل أمر ذلك إلى صاحب وظيفة الكتابة، كما هو شأنه مع أصحاب الوظائف الإدارية الأخرى[٧٦].

أمَّا في مملكة السنغاي فلدينا نصوص مهمة دوَّنها كتَّابُ سودانيون منهم السَّعدي ومحمود كعت، توضح مهام وواجبات الكاتب، فحاكم السنغاي لا يمكن أنْ يستغني عن الكاتب؛ لأنَّ وظيفته كتابة الرَّد على الرسائل التي تَرِد من الرعيَّة إلى الحاكم[٧٧].

ومن الضروري أنْ نذكر هنا أنَّ ملك السنغاي (سن على) كان قد اتخذ كاتباً عربياً أصله من فاس واسمه إبراهيم بن خضر، كان قد استقر في مدينة تنبكت وولِّي وظيفة الكاتب، وبعد وفاتهِ خلفه ولده (حوي) في هذا المنصب[٧٨].

من المهام التي عُهِدَت إلى الكاتب تحرير المراسيم الرسمية التي تصدر من الحاكم إلى الموظَّفين الإداريين وإلى رعايا المملكة، وقد سجَّل محمود كعت تفاصيل مهمة عن هذهِ المراسيم في مملكة السنغاي، كما سجَّل ما كان يُحرره الكاتب من محارم (المحرم هو الظهير أو المرسوم) إلى بعض أفراد رعيتهِ[٧٩].

ونجد أيضاً أنَّ حكَّام السنغاي أحياناً يستشيرون الكاتب في بعض القضايا التي تهم مصلحة المملكة، ويطلبون منه إبداء الرأي فيها[٨٠].

ولا بدَّ من القول إنَّ الكاتب في ممالك السودان الغربي كان محطَّ اهتمام وتكريم حكَّامها، فيُمنح الهدايا والعطايا عند توليتهِ في منصبهِ ككاتب[٨١]، بل نجد أنَّ مكانة الكاتب وقدراته قد تؤهله أحياناً إلى أنْ يحمل لقب وزير[٨٢].

٧. ولاة الأقاليم:

تعدُّ هذهِ الوظيفة في ممالك السودان الغربي من المناصب العليا، اقتضتها السياسة المركزية التي اتخذها حكَّامها أساساً في حكم ممالكهم كما أشرنا آنفاً، فالولاة هم الممثلون الرسميون للحكَّام في الولايات والمدن التابعة لسلطة ملوكهم، وتعود هذهِ الوظيفة في جذورها إلى العهد الوثني، حيث سجَّل البكري ما يُدلِّل على ذلك، ففي مملكة غانة الوثنية نجد أنَّ والي مدينة غانة (العاصمة) كان يحضر مجالس الملك الرسمية، وأنَّ مملكة غانة الوثنية مؤلَّفة من عددٍ من الولايات (الممالك) تابعة إدارياً إلى ملكِ غانة[٨٣].

وبعد قيام الممالك الإسلامية السودانية في أرض السودان الغربي، نجد من المعلومات ما تؤكِّد أنَّ هذهِ الممالك كانت تتكون من عددٍ من الأقاليم التابعة لها، فمملكة مالي مثلاً تتكون من

أربعة عشرة إقليماً مِن ضمنها إقليم مالي حيث العاصمة، وأنَّ هذهِ الأقاليم كانت وحداتٍ إدارية تابعة هي ومدنها وقراها إلى المركز في إقليم مالي الذي هو نواة الدولة[٨٤].

ويُسمَّى والي المدينة بـ(فربا) ومعناها النائب، وقد التقى ابن بطوطة بأحدهم في مدينة (أيولاتن)، التابعة لإدارة مملكة مالي، وذكر أنَّ له مجلس وأعوان، ومن أعوانهِ مَن سمَّاه بـ(المُشرف)[٨٥].

ويبدو أنَّ مكانة الولاة في ممالك السودان الغربي كانت كبيرة، فقد اصطحب (منسا موسى) حكَّام مالي معه أحدهم المُسمى (فربا مغا) في رحلةِ الحج إلى مكَّة[٨٦]، وهذا ما يُثير لدينا تساؤلاً، هل فربا مغا كان قد أطَّلع على نُظُم الولايات في الأقاليم التي زارها مع منسا موسى في طريقهم إلى الحج، لاسيَّما في لقاءات حاكم مالي مع رجالات الدولة في تلك الأقاليم ؟ والتي أشرنا إليها سابقاً. وإذا كان الجواب إيجابياً، فيكون تأثير رحلات الحج في إدارة الأقاليم في السودان الغربي موجوداً.

كان ولاة الأقاليم يُختارون من أولاد ملوك وأكابر المناطق التابعة لإدارة مالي، إذ إنَّهم من الرجالات الذين عُرفوا بفضلهم وشدَّتهم[٨٧]. وما هو ضروري هنا أنْ نُشير إلى أنَّ حاكم السنغاي الأسكيا مُحَمَّد كان قد أمَّر ابن أخت أمير مكَّة الشريف الحسني، بعد أنْ وصل إلى السودان الغربي وبطلبٍ من أسكيا مُحَمَّد أثناء رحلة حَجِّهِ، واسمه أحمد الصقلي، فجعله والياً على ناحية القرى والجزائر في مملكة السنغاي[٨٨]. وهذا ما يُبيِّن إشراك الشريف القادم في إدارة أقاليم في بلاد السودان، فهل كانت هذهِ المشاركة يا تُرى قناةً لتطوير إدارة الأقاليم في تلك المملكة ؟

وإنَّ من مَهام ولاة الأقاليم هي إدارة أقاليمهم نيابةً عن الحاكم في العاصمة، وحفظ الأمن والنظام في النواحي التي يُديرون شؤونها وبحرصٍ تام، وهذا ما شاهده الرحَّالة ابن بطوطة[٨٩]. كما كان الولاة لاسيَّما والي العاصمة يحضرون مجالس الحكم الرسمية للحاكم، ويُشاركون في الاحتفالات الرسمية والشعبية[٩٠].

المؤسَّسات الإدارية (الدواوين):

لم تعرف بلاد السودان في عهدها الوثني الدواوين، وأول إشارة وردتنا عنها دوَّنها العمري وهو يتكلَّم عن مملكةِ مالي الإسلامية المعاصر لها، حيث قال: لحاكم مالي ((قُضاة وكُتَّاب ودواوين))، وأنَّ حاكم مالي يعهد إليهم بإدارة شؤون المملكة[٩١].

إنَّ وجود دواوين متنوعة كمؤسَّساتٍ إدارية في السودان الغربي، يؤكِّد نظام الإدارة المركزية في تلك البلاد، وأنَّ سِمَة النظام المركزي هذا هو التخصص في مؤسَّساتهِ، وفي هذا ما لا يقبل الجدل على ما نذهب إليه، يُظهر أثر النُّظُم الإدارية للأقاليم الإسلامية خارج أرض السودان، وأنَّ ذلك كان بفعل الاحتكاك مع حُكَّام وإداريِّي تلك الأقاليم، وكان لرحلات حَجِّ الحكَّام والإداريين السودانيين أحد قنوات التعرف على ما عند الغير من مؤسَّساتٍ إدارية في شرق الدولة الإسلامية ومغربها، ونقل نُظُم هذهِ المؤسَّسات إلى بلادهم، وأنَّ تبنِّي الحكَّام السودانيون لتلك النُّظُم جاء بعد شعورهم بالانتماء السياسي والعقائدي إلى الدولة العربية الإسلامية.

تنوعت المؤسَّسات الإدارية (الدواوين) في السودان الغربي تبعاً لحاجة المملكة ورعاياها،

فنجد منها المؤسَّسة القضائية التي تمثَّلت بالقضاء ومجلس النَّظر في المظالم وما يتصل بها من وظائف كالشرطة والحِسبة وغيرها، والمؤسَّسة العسكرية التي ضمَّت الجيش البرِّي والبحري بصنوفهِ وتنظيماتهِ المتنوعة، والمؤسَّسة المالية. ونحن في بحثنا هذا سوف لا نتكلَّم عن مثل هذهِ المؤسَّسات المهمة والكبيرة؛ لأنَّ ذلك في الواقع يحتاج إلى حيِّز كافٍ لدراسةٍ مستقلة أو أكثر تغطي تفاصيل هذهِ المؤسَّسات في السودان الغربي، وسنقتصر على الاهتمام بمؤسَّسةٍ واحدة هي ديوان الرسائل.

يُعد ديوان الرسائل من المؤسَّسات التي ظهرت بعد تبنِّي الحكَّام السودانيين للإسلام عقيدةً وحضارة، وظهرت الحاجة إلى هذا الديوان بعد أنْ شعر الحكَّام بضرورة تنظيم المُكاتبات والمُراسلات الخارجية بين الممالك السودانية والممالك الأخرى، ويبدو واضحاً أنَّ ديوان الرسائل السوداني، كان قد تأثر في نُظُمهِ بما عند أقاليم الدولة العربية، وهذا ما وضَّحه العمري والقلقشندي، ولا نريد أنْ ندخل في تفاصيل الرسائل والمُكاتبات المتنوعة الأغراض بل نكتفي بإعطاء فكرة عن صيغ هذهِ الرسائل والمُخاطبات.

إنَّ العلاقة المتينة لمملكة مالي السودانية مع مصر وبلاد المغرب كانت تتطلَّب إرسال الرسائل وتبادل المُكاتبات وإيفاد السَّفارات لتدعيم هذهِ العلاقات، ولدينا نماذج من صيغ المُخاطبات بعضها صادر عن ديوان الرسائل في مالي، والبعض الآخر عن ديوان الإنشاء بمصر، نذكر منها وصفاً لصيغةِ مخاطبات ديوان الرسائل في مالي، سجَّله العمري والقلقشندي كالآتي:

((جاء كتابٌ من السلطان (منسا موسى) إلى الحضرة السلطانية بمصر (على عهد السلطان الناصر مُحَمَّد قلاون)، وهو بالخطِّ المغربي، في ورقٍ عريض السَّطر إلى جانب السَّطر، وهو يمسك فيه ناموساً لنفسهِ مع مُراعاة قوانين الأدب، كتبه على يدِ بعض خواصِّهِ ممَّن جاء يحج، ومضمونه السلام والوصيَّة بحاملهِ))[٩٢].

من هذا النص يتبيَّن: أنَّ كاتب الرسائل في مالي كان على درجةٍ عالية من المعرفة بصيغ كتابة الرسائل إلى المقامات العالية، وكيفية مُخاطبة السلاطين، واستخدام كاتب الرسالة الأسلوب الدبلوماسي الذي تقتضيه قوانين المُجاملة والأدب في الكتابة، كما نجد أنَّ ديوان الرسائل في مالي كان يستخدم الخط العربي وبالطريقة المغربية، مع مُراعاة نوع الورقة وطريقة الخط. وأنَّ كاتب هذهِ الرسالة كان من المُقرَّبين لحاكم مالي (منسا موسى)، بل كان أحد مرافقيه في رحلةِ حَجِّهِ، وهذا يؤكِّد لنا ما ذكرناه سابقاً من إطِّلاع موظَّفي إدارة حكومة مالي على ما عند أقرانهم في البلدان التي زاروها في طريقهم إلى الحَج مع ملكهم، وهذا يحفزنا على القول إنَّ ديوان الإنشاء في مصر كان له أثر في إثراء صيغ المكاتبات في ديوان الرسائل في مالي، ويؤكِّد ذلك ما نجده من تشابه في صيغ مُخاطبات الملوك والسلاطين عند كلٍّ من كتاب مالي وكُتَّاب مصر، حيث استخدموا الأسلوب الفخم والمسجوع والتقيُّد بصيغ المُجاملات العالي[٩٣].

وختاماً نذهب إلى أنَّ رحلات حَجِّ حكَّام السودان الغربي واصطحابهم لكبار إداريهم معهم كانت لها إسهام في إثراء النظام الإداري في السودان الغربي، فجاء تطوير أو استحداث الوظائف والمؤسَّسات الإدارية في الحكومات السودانية والتي أصبحت لا تختلف عن مثيلاتها في أقاليم الدولة العربية الإسلامية في أنواعها وتنظيماتها.

الخاتمة:

لم تكـن رحلة حـج الحكَّام السـودانيين إلى مكَّة مجـرد أداء فريضة إسـلامية، وإنَّما كانت له آثارٌ كبيرة على أوضاع السـودان الغربي بشكلٍ عام، منذ أواخر القرن (٦هـ/ ١٢م) إلى أواخر القرن (١٠هـ/ ١٦م).

فقبـل كلِّ شيءٍ أعطـت رحـلات الحـج هـذهِ سُـمعةً كبيرة لبـلاد السـودان، ليس فقـط في العالم الإسـلامي، وإنَّـما امتـدَّت أخبارهـا إلى أوربـا، بما تركتـه مـن انطباعٍ عن غِنـى هذهِ البـلاد، وإمكانية الاتجـار معها. كـما رافق رحـلات الحَج هـذهِ تغير كبـير في ممالـك السـودان الغربي، ذلـك لأنَّ الملوك السـودانيين اصطحبـوا معهم كبار رجـال إدارتهم الذيـن قد أطلعوا على المؤسَّسـات والنُّظُم الإدارية الموجودة في البلاد الإسـلامية التي مروا بها، لاسيَّما مـصر والمغـرب والحجـاز، فعَمِلوا عـلى إتباع نهج هـذهِ المؤسَّسـات، فصـارت المؤسَّسـات الإداريـة السـودانية لا تختلف عن مثيلاتهـا في أقاليم الدولة العربيـة الإسـلامية، وهكـذا تطـورت الوظائـف والمؤسَّسات الإدارية في ممالك السودان الغربي.

الهوامش:

(١) للتفاصيـل، يُنظـر: الشـيخلي، صباح إبراهيـم، «**عوامل انتشـار الإسـلام في أفريقيـا الغربيـة**»، مجلَّـة دراسـات إسـلامية، بيـت الحكمة، بغـداد، العـدد الأول، السـنة الأولى، ٢٠٠٠م.

(٢) السـودان الغـربي: أرضٌ ليسـت بالصغـيرة في أفريقيـا جنـوب الصحـراء، تمتد من سـواحل المُحيـط الأطلسي Atlantic Ocean غربـاً إلى مُنحنى نهر النَّيجر شرقاً، ومن الصحراء الغربية شـمالاً حتَّى الغابات الاسـتوائية Tropical rainforests الحارة جنوباً.

(٣) يُنظـر للتفصيل عن الاتحـاد الصنهاجي الصحراوية، وعن زعمائهم الـذي جاهدوا في بلاد السـودان الغربي من أجل نشر الإسـلام، بل وأخضع بعضهم ممالك سـودانية كثيرة لسـيادتهم: ابـن حوقـل، أبو القاسـم بن حوقـل النصيبي (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، **كتـاب صـورة الأرض**، (ليـدن، مطبعـة بريـل، ١٩٣٨م)، ص١٠٠؛ البكـري، أبـو عبيـد عبـد الله بن عبد العزيز بن مُحَمَّـد (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، **المسالك والممالك**، تحقيق: جمال طلبة، (بيروت، دار الكتب العلميـة، ٢٠٠٣م)، ج٢، ص٣٥١؛ مؤلِّـف مجهـول (من أهـل القـرن ٦هـ/ ١٢م)، **كتـاب الاسـتبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، (الدار البيضاء، دار النـشر المغربيـة، ١٩٨٥م)، ص٢١٦؛ ابن أبي زرع، أبو الحسـن علي بن عبـد الله الفاسي (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، **الأنيـس المُطـرب بـروض القرطـاس**، تصحيـح وترجمة: كارل لوجن تورنبرغ، (اوباسـله، ١٨٤٣م)، ص٧٦؛ ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، **كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر** (المعروف بتاريخ ابن خلدون)، (بـيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣م)، ج٦، ص٣٧٢.

(٤) البكري، **المسالك والممالك**، ج٢، ص٣٥٢.

(٥) هنـاك اختـلاف في تحديـد سـنة رحلـةِ حَـج يحيـى بـن إبراهيـم الجـدالي، فقـد حدَّدهـا ابـن أبي زرع بسـنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م، بينـما ذكـر آخـرون أنَّهـا كانت سـنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م. يُنظر: ابن أبي زرع، **الأنيس المُطرب**، ص٧٧؛ ابـن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد (ت٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م)، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغـرب**، (بيروت، دار الثقافـة، ١٩٨٠م)، ج٤، ص٧؛ مؤلِّف مجهول (من أهل القرن ٨هـ/ ١٤م)، **كتاب الحُلَل الموشـية في ذكـر الأخبار المراكشـية**، تحقيق: سـهيل زكَّار وعبد القادر زمامة، (الدار البيضاء، دار الرشـاد الحديثة، ١٩٧٩م)، ص١٩؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٣٧٣.

(٦) البكري، **المسـالك والممالك**، ج٢، ص٣٥٢؛ ابن عذاري، **البيـان المُغـرب**، ج٤، ص٧-٨؛ ابـن أبي زرع، **الأنيـس المطـرب**، ص٧٧-٧٨؛ مؤلِّـف مجهول، **الحلل الموشـية**، ص١٩-٢٠؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٣٧٣-٣٧٤.

(٧) يُنظـر للتفاصيل: البكري، **المسـالك**، ج٢، ص٣٥٢-٤؛ ابن أبي زرع، **الأنيس المُطرب**، ص٧٨-٨٠؛ ابن عذاري، **البيـان**، ج٤، ص٨-١١؛ مؤلِّف مجهول، **الحلل الموشـية**، ص٢٠-٢١؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٣٧٤-٣٧٥.

(8) S. J. Farias, "*The Almoravids: Some questions concerning the character of movement during its periods of closest contact with western Sudan*", Bulteein de' lnst-tuas fundimental d'Afrique Noire Tom. XXIX, No.3-4, (October, 1970), p.794.

(٩) عـن أسـباب اندفاع المُرابطـين إلى الشـمال ونتائج ذلك، يُنظر: الشـيخلي، صباح إبراهيـم، «**حقائق جديدة حول الحركـة المُرابطيـة**»، مجلّـة المؤرخ العربي، عدد ٢٧، سـنة ١٢، بغداد، ١٩٨٦م، ص٨٨-٩٨.

(١٠) ابـن أبي زرع، **الأنيـس المُطـرب**، ص٨٠-٨٧؛ ابـن عـذاري، **البيـان**، ج٢، ص١٢-٢١؛ مؤلِّـف مجهـول، **الحلل الموشية**، ص٢٢-٢٣.

(١١) البكري، **المسالك**، ج٢، ص٣٥٥.

(١٢) ابن أبي زرع، **الأنيس المُطرب**، ص٨١.

(١٣) البكري، **المسالك**، ج٢، ص٣٦٣.

(١٤) ابن أبي زرع، **الأنيس المُطرب**، ص٨٥-٨٧.

(١٥) ابـن عـذاري، **البيـان**، ج٤، ص٢٤-٢٧. يذكـر أنَّ استشهاد أبي بكر كان سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م.

(١٦) ابن أبي زرع، **الأنيس المُطرب**، ص٨٧؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٣٧٧؛ مؤلِّف مجهول، **الحلل المُوشية**، ص١٧.

(١٧) الزهـري، أبـو عبـد الله محمـد بـن أبي بكـر الغرناطـي (ت١١٥٤هـ/ ١٧٤١م)، **كتـاب الجغرافيـة**، تحقيـق: محمد حاج صادق، (دمشق، ١٩٦٨م)، ص١٢٥.

(١٨) الإدريـسي، أبـو عبـد الله مُحَمَّد بـن عبد الله بن إدريس الحسني (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٦م)، **وصف أفريقيا الشـمالية والصحراويـة**، (جـزء من كتاب نُزهة المشـتاق في اختـراق الآفاق)، تحقيـق: هنري بيربيـس، (الجزائر، ١٩٥٧م)، ص٦.

(١٩) مؤلِّف مجهول، **الحلل المُوشية**، ص١٧.

(٢٠) الإدريسي، **وصف**، ص٦.

(٢١) يُنظر: فرانكه، ميلكس كلاين، «**أبحاث هاييز بارث في تاريخ الإسـلام وانتشار العربية في أفريقيا**»، مجلّة العرب والعالم، السنة ٥، العدد٥٨، آب/ ١٩٨٣م، ص٥٧.

(٢٢) الزهري، الجغرافية، ص١٢٥.

(23) N. Levtzion, *Ancient Ghana and Mali*, (London, 1973), p.208.

(٢٤) يُنظـر للتفاصيل عن مملكة مالي: طرخان، إبراهيم علي، **مملكة مالي الإسـلامية**، (القاهرة، الهيئـة العامة للكتاب، ١٩٧٣م).

(25) Levtzion, Op. Cit., p.208.

(26) J. S. Trimingham, *A History of Islam in West Africa*, (London, Oxford University Press, 1963), p.64.

27 (27) Levtzion, Op. Cit., p.209.

(٢٨) لمزيـدٍ مـن التفاصيل، يُنظـر: البكري، **المسـالك**، ج٢، ص٣٦٦؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٤١٣-٤١٩.

(٢٩) ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٤١٣.

(٣٠) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، **صُبـح الأعشـى في صناعـة الإنشـا**، تصحيـح: نبيل خالـد الخطيب، (بـيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ج٥، ص١٩٣.

(٣١) أنظـر عـن قائمـة ملـوك مـالي: طرخـان، **مملكـة مـالي الإسلامية**، ص١٢١-١٤٢.

(٣٢) العُمـري، أحمـد بـن يحيـى بـن فضـل الله (٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، **مَسَـالك الأبصـار في ممالـك الأمصـار** (مـن البـاب الثامـن إلى الباب الرابـع عشر)، تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد، (الدار البيضاء، مطبعة دار البيضـاء الجديـدة، ١٩٨٨م)، ص٥٦؛ يُنظـر أيضاً: ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٤١٥-٤١٦.

(٣٣) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٧٠.

(٣٤) يُنظـر: ج. د. فيـج، **تاريخ غرب أفريقيا**، ترجمة: السـيد يوسف نصر، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م)، ص٥٧.

(٣٥) ابـن خلـدون، **العِـبر**، ج٦، ص٤١٤-٤١٧؛ ابـن بطوطـة، أبو عبـد الله مُحَمَّد بن إبراهيـم اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، **رحلـة ابـن بطوطـة** (المُسـمَّاة: تُحفـة النُّظَّـار في غرائـب الأمصار وعجائب الأسـفار)، (بيروت، مؤسَّسة الرسـالة، ١٩٧٩م)، ج٢، ص٧٩٢؛ ويُنظـر عـن طريق الحج الذي سـار بهِ (منسـا موسـى) ذهاباً وإياباً: السَّـعدي، الشـيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عِمـران بن عمر، **تاريخ السـودان**، نـشره: هوداس، (باريس، ١٩٦٤م)، ص٧؛

E.W. Bovil, *The Golden Trade of Moors*, (Oxford, 1970), p.87.

(٣٦) يُنظـر: ابـن خلـدون، **العِـبر**، ج٦، ص٤١٧؛ العـربي، محمد، **الحكم المغربي في بلاد السـودان الغربي**، (الكويت، مؤسَّسة الفليج، ١٩٨٢م)، ص٤٨؛

Levtzion, Op. Cit., p.124.

(٣٧) يُنظـر: العُمري، **مَسَـالك الأبصـار**، ص٥٩-٦٠؛ ابن خلـدون، **العِـبر**، ج٦، ص٤١٥؛ القلقشـندي، **صُبـح الأعشـى**، ج٥، ص١٩٤؛ السَّـعدي، **تاريخ السـودان**، ص٧.

(٣٨) يُنظر: طرخان، **مملكة مالي الإسلامية**، ص١٢٩.

(٣٩) عـن نشـوء وتطـور مملكة السـنغاي، يُنظـر: التنبكتي، محمود كعـت (ت١٠٠١هـ/ ١٥٩٣م)، **تاريخ الفتاش في ذكـر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس**، (بيروت، دار الكتـب العلميـة، ٢٠١٢م)، ص٤٠-٤١، ١١٠؛

السَّعدي، **تاريخ السودان**، ص٦-٧٢.

(٤٠) السَّعدي، **تاريخ السودان**، ص٧٢.

(٤١) يُنظر للتفاصيل: المصدر نفسه، ص٧٢؛ التنبكتي، **تاريخ الفتاش**، ص٦٠-٧٢.

(٤٢) لم أقف على ترجمتِهِ.

(٤٣) التنبكتي، **تاريخ الفتاش**، ص٥٧-٥٩.

(٤٤) المصدر نفسه، ص٤٨-٥٣، ٦٧.

(٤٥) المصدر نفسه، ص٦٧.

(٤٦) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٤٧) المصدر نفسه، ص٤٨-٥٣.

(٤٨) يُنظر: زبادية، عبدالقادر، **مملكة سنغاي في عهد الأسبقيين**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، لا.ت.)، ص٥٩.

(٤٩) البكري، **المسالك**، ج٢، ص٣٥٤. ويُنظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص٨٦؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص٣٧٢.

(٥٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص٥٧.

(٥١) البكري، **المسالك**، ج٢، ص٤٦٣. ويؤكد المقريزي قول البكري، يُنظر: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (المعروفة بالخطط المقريزية)، (القاهرة، مطبعة بولاق، ١٢٩٤هـ)، ج١، ص١٩٤.

(٥٢) يُنظر: الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف (ت٣٣٦هـ/ ٩٤٧م)، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، (بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٩م)، ص٧٧.

(٥٣) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٦٩.

(٥٤) السَّعدي، **تاريخ السودان**، ص٦، ٨١.

(٥٥) يُنظر: فيج، **تاريخ غرب أفريقيا**، ص٥٨.

(56) Trmingham, Op. Cit., p.36.

(٥٧) التنبكتي، **الفتاش**، ص٥٧-٥٩.

(٥٨) القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج٥، ص٤٢٦.

(٥٩) ابن بطوطة، **رحلة**، ج٢، ص٧٨٣.

(٦٠) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٦٩-٧٠.

(٦١) ابن بطوطة، **رحلة**، ج٢، ص٧٨٣-٧٨٤.

(٦٢) السَّعدي، **تاريخ السودان**، ص٧٣؛ التنبكتي، **الفتاش**، ص١٣٠.

(٦٣) البكري، **المسالك**، ج٢، ص٣٦٢.

(٦٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٣.

(٦٥) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٦٧؛ القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج٥، ص٧٨٦-٧٨٧.

(٦٦) ابن خلدون، **العِبر**، ج٦، ص ٤١٨، ٤١٩.

(٦٧) السَّعدي، **تاريخ السودان**، ص١٢٥؛ التنبكتي، **الفتاش**، ص١١٩.

(٦٨) يُنظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٥م)، **معجم البلدان**، (بيروت، دار صادر، ١٩٥٥م)، ج٣، ص٤١٢.

(٦٩) ابن بطوطة، **رحلة**، ج٢، ص٧٨٤.

(٧٠) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٦٥.

(٧١) البكري، **المسالك**، ج٢، ص٣٦٣.

(٧٢) ابن بطوطة، **رحلة**، ج٢، ص٧٨٤، ٧٨١.

(٧٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٨٦-٧٨٧، ص٧٨٨-٧٨٩.

(٧٤) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٧١.

(٧٥) التنبكتي، **الفتاش**، ص١٤٨-١٤٩، ص١٩١-١٩٢.

(٧٦) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٦٧؛ القلقشندي، **صُبح الأعشى**، جج٥، ص٢٨٧.

(٧٧) السَّعدي، **تاريخ السودان**، ص٦٨.

(٧٨) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٧٩) التنبكتي، **الفتاش**، ص٦٨-٦٩، ص١٣٦، ١٥٩-١٦٠.

(٨٠) المصدر نفسه، ص٢٠٥.

(٨١) المصدر نفسه، ص١٩١.

(٨٢) السَّعدي، **تاريخ السودان**، ص١٢٥.

(٨٣) البكري، **المسالك**، ج٢، ص٣٦٣.

(٨٤) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٦٠.

(٨٥) ابن بطوطة، **رحلة**، ج٢، ص٧٧٦، ٧٩٢.

(٨٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٩٢.

(٨٧) التنبكتي، **الفتاش**، ص٦٧؛ ابن بطوطة، **رحلة**، ج٢، ص٧٩٥.

(٨٨) التنبكتي، **الفتاش**، ص٥٣، ٥٧.

(٨٩) ابن بطوطة، **رحلة**، ج٢، ص٧٩٣.

(٩٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٨٢، ٧٨٣.

(٩١) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٦٧. يُنظر أيضاً: القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج٥، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٩٢) العُمري، **مَسَالك الأبصار**، ص٧٣؛ القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج٨، ص١٥.

(٩٣) يُنظر عن صيغ وأساليب الكتابة في رسائل ديوان الإنشاء في مصر والخاصة بمُخاطبات حكَّام مالي: القلقشندي، **صُبح الأعشى**، ج٨، ص١٥.

The impact of pilgrimages on the emergence and development of jobs and administrative institutions in the western Sudan

Prof. Dr. Ṣabaḥ Ibrahim al-Shaikhly

University of al-Ma'mun

Abstract:

This study discuss mainly the impact of the pilgrimages travels on rising and developing of the Administrative systems in western Sudan from 5-10H / 11-16 A. century.

Thus we can divided the study into two stage:

The first witnessed the wide spread of Islam in western Sudan, and proclamation of the politic Islamization during the 5/11 century which connected with pilgrimage of the Sanhāja ruler Yahyā ibn Ibrāhim al-Juddali.

At the second stage, there was the pilgrimages of western Sudan's kings and its affect on the administrative system of their governments, by developing the old administrative functions, according to Islamic system, and creating new admistrative institutions, according to their needs of that stage.

As it was known the pilgrimage to Mecca enhance the status of Sudan's kings in the eyes of their subjects. Therefore, there was along tradition of royal pilgrims in western Africa, for that, at lest two Sudan's chiefs performed the pilgrimage during the eleventh –and twelfth centuries, and some of them made the pilgrimage more than one time. The pilgrimage also, was a source of inspiration, therefore, the kings of western Sudan made their way to Mecca because of the impression they left on their subjects, Muslims, or non-Muslims.